

الفصل التاسع

النفود

وقع نظري لأول مرة على النفود في جوار شداد أم كر. وياله من منظر! أمواج الصحراء الحمراء تعلو وتهبط بانتظام وتمتد إلى ما لا نهاية. والقمم التي تأخذ شكل الهلال والمخروطات المنحرفة تبدي تناقضاً بين النور والظل. مستويات حمراء داكنة ترتفع حتى الضفاف على الجوانب تلتهب تحت أشعة الشمس. وبين الجدران في الممرات الحمراء التي يبلغ عمقها ٦٠ - ١٦٠ قدماً وميض من الفضة والخضرة. الشجيرات والأشجار الصغيرة المتناثرة ذات السيقان البيضاء الحليبية، والأغصان الطرية المتدلية التي تحمل الغصينات الريشية والإبر الخضراء الرمادية.

حبست أنفاسي مغموراً بالدهشة والإعجاب. وبخطا صامته تقدمت بها^(١) إلى أول شجرة ومدت رقبتها النحيلة، وقضمت برفق الغصينات الصغيرة الصفراء والإبر الخضراء الجديدة لنبات الغادة (الطرفاء) التي توجد على امتداد الكثبان الرملية، وهي هبة ونعمة للإنسان والحيوان. وتتغلغل جذورها في عمق الرمال الحمراء الكوارتزية الصافية لأنها تزدري أتربة الصحراء الأخرى.

(١) اسم الناقة التي يركبها المؤلف.

لقد خبرت مها النفود وتنقلت فوق المنحدرات الشاقة التي أدت - كالبحر المتلاطم الأمواج - من الحوض إلى القمة وعبر الفجوات العميقة إلى المنحدر التالي. من المستحيل أن يسير المرء في خط مستقيم كما يفعل في الحماد والحرّة (اللجة). وتابعنا طريقنا عبر لوالب وانحرافات غير متناهية فوق التلال ووسط الوديان. وبين الفينة والأخرى مرّت الطريق في سهل منبسط صغير، ولكنه دائماً يؤدي إلى كثبان كبيرة على جانبها الآخر دائماً حفرة أو فوهة بركان، وهي تشكّل غريب مختلف تماماً عن الكثبان الرملية التي عرفناها في شمال الصحراء الكبرى.

وأحياناً ينخدع المرء بامتداد من الأرض الصلبة، فيحاول الحري عبر ضفة رملية منخفضة، ولكنّ مها كانت أكثر خبرة بهذه الكثبان الغادرة ولا تسرع أبداً. كانت تلك التموجات الرملية ذات الأطراف المتدرجة خطرة جداً على الرغم ممّا تبديه من أمن واستقرار، إذ غالباً ما يتبعها انحدار شديد إلى القاع في الجانب الآخر. وكنا نقضي أحياناً أكثر من نصف ساعة لنعبر بين كثيب رملّي وآخر. واجهت مجموعتنا الصغيرة من راكبي الجمال صعوبة في البقاء مجتمعة. ولكن ربما كانت الجمال أكثر قدرة منا على البقاء مجتمعة. وقد عهد فارس بي كلية إلى قيادة مها إذ كانت تقضي عدة شهور في كل عام في النفود وعرفت بالغريزة (كما بدا لي) كيف تعرف مسبقاً أماكن الخطر.

ستبقى هذه المسيرة في النفود معي ذكرى لا تنمحي، وخصوصاً بعد ظهر ذلك اليوم عندما رأيت ملامحها الحمراء ترتفع مهددة بالخطر فوق الرمال المنبسطة.

هذا الافتتان خلال الأيام الأولى جعلني أتلهف لقطع كامل الصحراء الحمراء على الرغم من إدراكي بأن مثل هذا العبور سيكون مرهقاً حقاً. من موقعنا على الطرف الغربي للنفود كانت المسافة حوالي ثلاث مئة ميل إلى الطرف الشرقي. وإذا كان باستطاعة جمالنا السير ثلاثة أميال في الساعة في هذه الكثبان - وأقل من نصف هذه المسافة عند طيران الغربان - فمعنى ذلك أن هذه الجمال

كانت تسير سيراً حسناً. وعندما عبرت عن هذه الرغبة لفارس اعترض بعقلانية بأننا غير مجهزين لمثل هذه الرحلة، وأن عليّ أن أكتفي بتمديد فارس لمسيرتنا على الطرف الجنوبي الشرقي للنفود. وهي تتوسع هنا لأنها تمدّ رؤوساً عريضة إلى السهل الغربي في الجزيرة العربية، وقد سافرنا أولاً فوق هذه الرؤوس أحياناً بين الكثبان العالية، وأحياناً لمدة يوم كامل عبر النحود المنبسطة. سافرنا حول الجروف الصخرية التي حطمتها العوامل المناخية، وعبر الانهدامات المنخفضة ذات البرك المطرية الجافة حتى وصلنا إلى النفود نفسها ثانية. وهناك وصلنا إلى أقصى نقطة جنوبية في رحلتنا. وحسب رواية فارس أصبحنا على مسيرة يوم واحد من تيماء أي أننا أصبحنا على مسافة خمسين ميلاً من تلك الواحة الشهيرة.

واستمرت طريقنا صعوداً ونزولاً كما لو كانت تمر فوق سنامات عشرات الآلاف من الجمال الضخمة الرابضة، حتى إن رواحلنا كانت تبدي بعض العصبية أحياناً؛ مما كان يتوجب علينا قيادتها. وكان علينا أحياناً خلع صنادلنا أو أخذيتنا لنستطيع السير فوق السفوح الشديدة الانحدار، حتى نغرس أقدامنا بقوة، أو نجرف خطواتنا بأكفنا وأقدامنا. ومن حسن الحظ أننا ركبنا ذلاً معتادة منذ الصغر على النفود. فالجمال التي ألفت العيش في الصحراء الصوانية أو المناطق البركانية ترفض بإصرار أن تطأ هذه الرمال الغريبة.

كانت حدود الكثبان مشبعة بأشعة الشمس متوهجة بالحمرة القانية في أواخر النهار. لقد توهجت كما لو أنها اكتست بالحرير الناعم. ترى هل هناك كثبان رملية بكر لم تطأها أرجل البشر ولم تعرف إلا الأقدام الصغيرة البريئة للغزلان الرشيقة؟

ويبدو شمال غرب النفود في الربيع مليئاً بالصيد، ففي معاقلها يتكاثر النعام الذي يهاجر فيما بعد مع صغاره إلى الشمال كما تتكاثر أيضاً الغزلان والوعول طريدة النمر الشرس. كما أن تيس الجبل أيضاً والنسر من جبل الطويل القريب حيث لاتزال هذه الحيوانات موجودة تصل في رحلاتها الربيعية إلى القفار الغربي.

ولنعد إلى زحفاً فوق الكتبان بعد ظهر ذلك اليوم إذ لفت انتباهنا من بعيد شيء يتحرك تحت الطرفاء. أوقفت راحلتي وركزت منظاري فظهر لي شيء خلاب. مجموعة من غزلان الريم البيض كالثلج، أقدامها مغروسة في الرمال الحمراء، ترعى الأغصان المتدلية في جو حفي أخضر. وبندقيك النظر رأيت مجموعات أخرى من الغزلان بالقرب منها: بعض الغزلان يغالبها النعاس وبعضها يشم بعضاً أو تتناطح بقرونها ورؤوسها. مناحي أيضاً كان ينظر فأخرج بندقيته من خرجه، ولكني رجوته ألا يطلق النار وأن يدع هذه الحيوانات الجميلة بسلام فتقبل وجهة نظري. أشار إلى فارس وإلى الآخرين فساروا في غور بين الكتبان بينما تخلفت أستمتع بمنظر هذه المخلوقات الفاتنة. إنها تروي عطشها بالندى الذي يتجمع في الصباح على الأوراق والأزهار كما يقول البدوي.

وقدّر لي أن أنال مكافأة في تلك الساعة من المراقبة والتأمل الصامت، إذ لا بد أن بعض الحركة أو الضجة المريبة نبّهت الغزلان لأنها انتصبت كلها واقفة في عدة مجموعات بيضاء في الرمل الأحمر منتصبه الآذان وكلها تحديق باتجاه الغرب. وفجأة ظهر فوق السفح مجموعة من إحدى عشرة نعامة بخطى طويلة بطيئة - ثلاثة ذكور وثمانية إناث - إنها طيور رائعة. وتسلسل خلفها غزال فضولي، لكن النعامات بدأت بالعدو واختفت في متاهات الكتبان الرملية.

وعندما سرت في إثر رفائي قطع طريقي أحد الثعالب، وطارت غربان كثيرة من بين شجيرات الأكاسيا. كانت الشمس تشرف على المغيب، والهواء الجاف يميل نحو البرودة، وأمامي الأمواج الرملية بقممها الذهبية الحمر تلقي ظلالاً داكنة نحو الشرق. وستر وجه البرية حجاب بنفسجي، وخيم على النفود سكون عجيب. غسق قصير ثم يأتي الليل، والريح تحمل إلي صوتاً خافتاً، إنه فارس يبحث عني. فأجبت النداء وركبنا جنباً إلى جنب إلى أخذود آمن محاط بالكتبان العالية جعلت منه مراحة جمال ممتازة ومخيماً مثالياً.

قال فارس: «دعونا نتناول طعامنا» وسحب شداد الثقيل وقربة الماء عن ظهر ذلوله. وسرعان ما أشعلت النار من أغصان الطرفاء. وخلال ثوان قليلة أصبحت دافئة، واشتعلت بدون دخان وبلهب لا لون له تقريباً، وغذاها الرجال

بالجذور والأغصان بحجم الذراع. في هذه الأثناء جهّز العجين. وعندما أصبحت هناك كومة من الجمر المتوهج أحضرت صفيحة الخبز المعدنية ووضعتها على النار. وكان طعم هذا الخبز الساخن رائعاً مع التمر والعسل وجبن الجمال الصلب.

وضع فارس الحراس فوق هضبتين رمليتين مشرفتين، وكان عليّ أن أتولى إحدى نوبات الحراسة. ولّفت الصحراء ليلة صافية، وعكست كثبان الرمال والهواء ضوء النجوم بلون بنفسجي ذي بريق فضي. كانت ليلة تسحر الألباب.

ولكن أعظم أعجوبة هو ذلك السكون التام الذي سحرني، فسكرت من جمال الأضواء الليلية الخافتة، وعظمة السماء التي تنعكس في هذه المرآة الرملية الفريدة. وجلست لعدة ساعات وحيداً يغمرنني هذا السحر العجيب.

* * *